تفريغ مادة مرئية بعنوان

طه عبد الرحمن

فيلسوف الإسلام المعاصر

ما له وما عليه

.

١٧/ ٨/ ٢٠١٧ - ٢٥ ذي القعدة ١٤٣٨

مدة المادة: ١٨: ٢٤

الشيخ

أبو قتادة الفلسطيني

حفظه اللّٰه

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلم على رسولنا وسيدنا محمد:

السؤال الأول: يسأل أحد الإخوة يقول: ما هو تقويمك لمدرسةٍ تنتشر اليوم ولها أنصار، وهي مشروع طه عبد الرحمن الفيلسوف المتصوف، وهو من الزواية البشيشية، الذين يرون إحياء التصوف في مقابل الحداثة الغربية.. لو خصصتم سيدي كلمة أكون لكم ممتنًا تمام الامتنان.

من الغرائب التي نجدها في حياتنا، والتي تدل على أن العقل الإنساني ليس واحدًا بل هو متعدد؛ بمعنى: أنه يمكن للمرء أن يتعقلن في جانب، وأن يمحو عقله في جانب آخر..

وضلال الناس أغلبه وأكثره فيما يتعلق بميراث الأنبياء، يعني: الأغلب في الناس أنهم في جانب العقليات والكونيات وفي جانب الأقدار والسنن، أنهم يلتزمون بالحياة وقوانينها وسننها –فلنسميهم بالعقلانيين في هذا الجانب– ولكنهم إذا جاءوا إلى جانب الشريعة نجدهم يتحللون من هذه العقلانية؛ وهذا موجود في البشر جميعًا، وموجود في أهل الإسلام.. في طائفة من طوائف أهل الإسلام.

ونحن نعجب أن يكون عابد البقر أستاذ فيزياء!! أو أن يكون عالمًا في الفلك!! وأنا كتبت في هذا عند كلامي عن الفرق بين العقل الشعري والعقل الجهادي، في أن العقل الواحد في المرء –يعني– يتعدد..

فضلال الناس –كما قلت لكم– أغلبه فيما جاءت به الشريعة؛ ومبعث هذا الضلال هو: دخول الهوى فيه، يعني: المرء في الكونيات يحاول التسديد، لأن في ذلك منفعته؛ كالتاجر ينزل إلى السوق: فإنه لا ينزل بلا عقل، ولا ينزل بلا سنن، ولا ينزل بلا قواعد.. حرصًا منه على إصابة المنفعة والربح؛ وكذلك الذي يريد أن يسلك طريقا ليسافر: فإنه يبحث عن أسد الطرق وأجودها وأسلمها، من أجل أن يصل إلى مراده.. فلا يدخله الهوى.. لكن موضوع الدين يدخل فيه الهوى والظن، ومن هنا نجد: أن أغلب ضلال الناس في هذا الباب الذي نحن فيه؛ يعني: كما قال الإمام الشافعي رحمة الله تعالى عليه: "ما رأيت رجلًا تصوف في أول نهاره ما أتت عليه صلاة العصر إلا وهو مجنون".

فالصوفية هي الجنون في الحقيقة، ونحن نرى كذلك الروافض فيهم الجنون.. أنتم ربما الآن لاتساع وسائل التواصل والنشر، تدخلون فتجدون لأئمة الشيعة الروافض كلامًا لا تقبله الدابة، لكنهم يقبلونه ويعتقدون به ويقاتلون عليه، ويبكون ويتفاعلون معه كأنه حقائق؛ فإذا روجعوا فيه من جهة العقل فقط، ضجوا وسلموا

بأن النص هكذا جاء!! وهذا من الضلالات، بمعنى: أن يظن أحد أن شيئًا في الشريعة على خلاف العقل.. ما يقتضيه العقل من روابط وقواعد وأسس.

علماء السنة يقولون: لا يوجد في الشريعة ما يخالف العقل، لكن يوجد فيها ما لا يدركه العقل.. وهنا فرق.. أن يأتي شيء على خلاف العقل، فهذا لا تأتي به الشريعة، لكن أن يأتي شيء فيها لا يدركه العقل بنفسه ويسلم للنص، كما هو شأن الآخرة وما فيها.. «**يجلسون على منابر من نور**» في العقل: لا يوجد في الدنيا ما يقيس عليه هذا الخبر.. لا يوجد.. كيف يجلس على منبر من نور؟!! الناس يعرفون النور أنه الشيء اللطيف.. مادة لطيفة لا تمس.. لكن النور يوم القيامة يصبح مجلسًا يجلس عليه أولياء الله والمتحابون فيه.. فإذا: تأتي الشريعة بما لا يستطيع المرء أن يدرك سننيته.

فنحن نلاحظ في المتصوفة في تاريخنا –وهم أشبه الناس بالروافض– أنهم يلغون العقل، وبالتالي: نرى الفقيه الصوفي إذا تكلم في الفقه أبدع، وإذا تكلم في باب التصوف والسلوك والعبادات في مسائل التصوف.. نراه يشط؛ ورحم الله ابن العربي المعافري عندما قال عن شيخه الغزالي: أنه دخل في جوف الفلاسفة ولم يستطع الخروج!! وأنكر عليه أنه لما رآه في بداية الأمر فقيهًا عالمًا، ورآه أصوليًا جهبذا، ولما رآه قد تصوف وخلع عنه زي الناس واعتزل، فرآه شيئًا غريبًا لا يمت إلى ما يعرفه من قواعد الأصول أو قواعد الفقه بشيء!! وهذا –للأسف– شيء نلحظه. هذا واحد.

الشيء الآخر: نرى تمازجًا عجيبًا بين الفلسفة والتصوف –حين يكون التصوف إشراقيًا– يعني: نرى ابن سينا –هذا الملحد، الذي كان على مذهب الإسماعيلية، وكان أبوه قرمطيا، وهو من الملحدين.. يعني: ليس من أتباع الشريعة في شيء– نراه متصوفًا ويتكلم عن المدرسة الإشراقية!! وبين الفلسفة و الإشراق تعارض شديد: فالإشراق هو: الوصول إلى المعرفة عن طريق الجذبة والذوق والكشف.. هذه هي المدرسة الإشراقية.. مدرسة العرفان.. من ذاق عرف، ومن عرف غرف.. هو يحس بالأشياء التي نؤمن بها ويحس بالغيب؛ والفلسفة هي: الوصول إلى المعرفة عن طريق التفكر الذاتي، بعيدًا عن الوحي، وبعيدًا عن المؤثرات الأخرى غير العقل؛ ومع ذلك: نرى أن الفلاسفة في تاريخنا يمتون إلى المدرسة الإشراقية بصلة كبيرة، فكيف يجتمع هذا مع هذا؟!! هذا شيءٌ عجيب.

ومن غرائب الأمور: أن الفلسفة الإشراقية التي تنتهي إلى أنه لا وجود في الوجود إلا واحد وهو الله، أي: لا فرق بين الخالق والمخلوق.. تنتهي إلى الإلحاد بأنه لا يوجد غيب، وهذا ما يقوله الماديون.. وهذا شرحته في مجلس سابق.. فلا تستغرب هذه الثنائية -أو الثلاثية- في عقل واحد من البشر.

هذه مقدمة في الكلام عن الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن، وسأختار أحد كتبه من أجل مناقشتها في مشروع الألف كتاب، وأخرته لأنه خلال سجني -وهو من المكثرين- أخرج كمية كبيرة من الكتب -أخبرني بها بعض الإخوة من المتابعين، جزاه الله خيرًا- فلابد أن أطلع عليها.

مع أن الكتب السابقة فيما يتعلق بفقه الفلسفة، والرد على عابد الجابري، وفي التكوثر العقلي، وفي ضرورة المنطق؛ هذه الكتب التي تقدمت وأسست لطرح هذا الدكتور.. نحن نراه فيلسوفًا مع أن كتبه مليئة بالحشو، يعني: الدكتور -للأسف- يكتب كأنه يتكلم، ولذلك يكثر في كتبه الحشو الكثير جدًا، يعني: ربما تختزل ثلاثين أو عشرين صفحة في صفحة واحدة!! فالذي يريد أن يقرأ كتبه فليكن صبورًا.

وأنا -بلا شك- من خلال قراءتي لكتبه، أنا من المعجبين بكتبه؛ وهو -يعني- يطرح طرحًا معرفيًا جميلًا في كتبه الفلسفية، وله -في الحقيقة- مزاج رائع في انتقاءه لمعارف وأفكار كتب الأقدمين، فهو -يعني- يلتقط المعارف الجميلة جدًا في كتب الأقدمين ويضعها في سياقه الذي يريده، وهو في الأغلب يصيب في هذا السياق.

فلذلك أنا أقول: إذا قدمنا طه عبد الرحمن فيلسوفًا، نراه إسلاميًا بحتًا، وإن أُخذ عليه أشياء.. يُؤخذ عليه كما يؤخذ علينا ويؤخذ على كل أحد.. في كتبه الفلسفية هذا هو تقييمي له باختصار.

نأتي إلى موضوع السلوك..

بلا شك أن طه عبد الرحمن "رقيص" بمعنى: أنه يمارس الرقص الصوفي، وهو صوفي، وكما ذكر الأخ السائل: أنه على إحدى الطرق ومبايع لهذه الطريقة..

هذه الثنائية التي أتحدث عنها، يعني: كيف يكون رجل بمثل هذه العقلانية في طرحه الفلسفي وفي صلابة الفلسفة..؟!! وأنا أسميه بحق فيلسوف الإسلام المعاصر فيما يطرحه في كتبه المعرفية، ولكن سلوكه هذا هو حكمنا عليه.. نسأل الله عز وجل أن يهديه وأن يُصلح أمره..

وربما هنا إذا أردت أن أقارن المسألة: هؤلاء حين يصلون الذروة في مسائل العقل والفكر يحسون بالقسوة والجفاف، فإنهم بدل أن يذهبوا إلى السنة التي تملأ الوجدان.. وتملأ العقل.. وتملأ الروح.. وترطب حياة المرء، يذهبون إلى التحارب التي تجعلهم يحسون بالنشوة.. يعني: الرقص الصوفي.

لو أنك قارنت بين رجل يمسك القرآن.. يقرأ القرآن.. والقرآن نور وحياة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذه المرتبة من التعبد في قراءة القرآن تحتاج إلى معاناة، وتحتاج إلى جهد عقلي شديد وصبر على القراءة، يعني: للوصول إلى هذه المرتبة من الحقيقة القرآنية، لابد بأن يسلك المرء طريقًا طويلًا: يحتاج لقيام الليل، وأن يُطيل في القيام.. يحتاج إلى معاناة في الجلوس مع القرآن، ليحس بهذا الذوق الذي أحسه السلف والصالحون والأولياء.. وحين يحسون بهذا الذوق لا يطربون الطرب الشهواني، الذي يطرب به من انتشى بسبب خمر السماع وخمر الرقص.. فهؤلاء يختلط عليهم هذا.

فالمرء إذا تحدث عن تجربته في هذا الباب، فيجد أن المعرفة والذوق الذي يحسه المرء مع القرآن –بعد الإطالة، وبعد التمرس به، وبعد الزمن الطويل– يحس بذوق قرآني خاص.. لا يصنع رقص البدن ولا اهتزاز البدن، هو يقشعر جلده ولكن لا يقوم يرقص، كما أصابته لحظة سماع خبر جميل فقام من فرحه وجعل يهتز.. هذا لم يفعله الصحابة رضي الله عنهم، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: أن أول من أصابهم هذا الأمر –وهو قضية: تهتز إذا ذكر، ويتمايل تمايل الطرب وليس تمايل القراءة، يعني: هذا الذي يقرأ فيتمايل ولكن تمايل الطرب– أنه لم يكن في الصحابة قط، وإنما حدث عند المتأخرين التابعين.

فماذا يحدث؟ مثالنا الشيخ الدكتور والذين عندهم من العقلانية في جوانب العلم، فإنهم يأتون إلى الرقص الصوفي، والرقص الصوفي لا يوجد فيه قراءة القرآن.. الرقص الصوفي يوجد فيه الأناشيد!! وكما قال الشاعر:

متى علم الناس في ديننا *** بأن الغناء سنة تتبع

وأن يأكل المرء أكل الحمار*** ويرقص في الجمع حتى يقع – وضحك الشيخ –

وقالوا سكرنا بحب الإله *** وهل أسكر القوم إلا القصع (الأكل)

فهؤلاء حين يأتون إلى الرقص، وأنا حضرت في شبابي -باحثًا عما يفعلون، لا تقليدًا لهم ولا مشاركًا إياهم- الكثير من الحضرات، فهم يقومون وتبدأ الأناشيد بالأصوات الجذابة الجميلة.. وفي هذه الأناشيد من الأذواق التي تقترب كثيرًا إلى ملامسة الحالة الجنسية: من الشوق لليلى، ومن السهد، وهم يرمزون ليلى ويقولون: أن المقصود به الله؛ لكن -في الحقيقة- الذهن يسمع كلمة ليلى، وأنه متشوف إليها، وقد غابت عنه ووو الخ، فيهتز البدن ويرقص.. كما هو شأن المرء في تفاعله مع أدوات الموسيقى والطرب والمعازف والغناء.. فيظنون -جهلًا منهم- بأن هذه الحالة الشعورية التي تلامس قلوبهم عند هذه الأفعال، أنها هي الحالة الإيمانية التي تحدث عنها القرآن!!! وهنا يقع هؤلاء في الخطأ الكبير، لعدم تمرسهم ومعرفتهم بأذواق السلف، وعدم معرفتهم بالذوق الإيماني الصحيح المصاحب للطاعة السنية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولذلك، هم يقولون: نحن نحس.. أنتم تتحدثون عن معارف عقلية!! هكذا يزعمون: أن أهل السنة وأهل الحديث يتحدثون عن معارف عقلية فقط، وليس عن أوجاد وذائقات حقيقية وعملية.. هذا غير صحيح.

فهم يظنون أنهم قد أصابوا المعرفة الإيمانية وأصابوا الذوق الإيماني، من خلال هذا السلوك الصوفي الذي تحدثنا عنه؛ وهذا خطأٌ كبير.. العاقل إذا انتبه عليه فقد أبصر الطريق.. وهذا مزلقٌ كبير.

أنا أتحدث عن معرفة في هذا الباب، لأن هؤلاء يظنون أن هذا الذوق.. وهذا الرقص.. وهذا الوجد.. وهذا الفرح القلبي، لما يمارسونه من أعمال.. من رقص وسماع وطرب وأغاني، وهي بلا شك -يعني: أنا أعترف بأن الأناشيد الصوفية أناشيد رمزية تفرح القلب على معنى الوجد الشهواني.. حين يتحدثون عن الصدود وعن الرغبة في ملاقاة ليلى التي طال انتظارها، فهم يأتون بالأناشيد.. ولو قرأتم تائية ابن الفارض مثلًا، أو قرأتم -مثلًا- أوجاد الشيخ البرعي وهو ذاهب إلى الحج، لوجدتم أشواقًا عجيبة تجعل الأبدان ترقص لها، فإذا صاحبها صوت جميل من أصواتهم التي يملكونها، فإذا صاحب هذه الأصوات استخدام الآلات -الدف، وبعضهم يزيد على الدف أشياء كالمزمار- فحينئذ يصاب بالوجد ويفرح ويحس بالراحة العجيبة التي يحسها من استمع للقينات والمغنيات والمعازف من أهل الدنيا.. سواء بسواء.. لا فرق، لكن هذا يلبسها اللباس الديني وذاك يجردها فقط.

وبعضهم يفعلها.. يعني: أنا رأيت شيخًا جاهلًا تحدث عن أغنية للمغنية أم كلثوم، وهي تغنيها على معنى الشهوة وعلى معنى الحب الدنيوي وحب المعاصي، ولكن هذا الشيخ يجعل أن مؤلفها وضعها في شوقه للنبي صلى الله عليه وسلم!! هذه هي طريقتهم، وهذا هو اختلاط الأمرين..

المعرفة الإيمانية والذائقة الإيمانية إنما تكتسب بالطاعات، ولها ميزات على المرء أن يُدركها وأن يعرف معانيها، وهي خاصة لا علاقة لها بهذا الرقص.. هي لا تبعث على الرقص ولا تبعث على الانتشاء.. هي معارف إيمانية ثقيلة تصنع الثقل والهيبة، وتصنع ما تراه حين ترى رجلًا مصليًا وفي صلاته يهزه الذكر فيبكي، ولا ينفعل هذه الانفعالات التي نراها في المجانين، فيرقصون ويتفاعلون ويضربون وينجذبون، وهذه تفاعلات شيطانية، وبعضها مبني على المرض وعلى التحشيش الداخلي، كما ذكرت مرة عندما تكلمت عن كتاب شيخنا وأستاذنا الدكتور محمود عبد الرؤوف القاسم "الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ" فهذا تحشيش داخلي.

القصد من هذا: أن هذا الدكتور، لعدم خبرته بالسنة وعدم خبرته بطريقة السلف في التعبد وعدم إبصاره، يأتي إلى ما ذكرنا.

الأمر الآخر: هؤلاء يظنون أن أهل الحديث لا وَجْدَ عندهم.. ولا طرب شرعي عندهم.. ولا ذائقة إيمانية عندهم، فيسمونهم بالجافين.. هؤلاء عندهم جفاف!! فأين التربية والسلوك؟؟ لابد من التصوف!

وبعضهم يقع في خطأ، كما وقع الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله فقال: المشكلة في اسم "التصوف" لو سميناه "تزكية" لاعتدل الأمر ولتوقف الكثير من الخلاف؛ وهذا غير صحيح، فالمسألة لا تتعلق بالشعار ولا بالمصطلح، المسألة تتعلق بالموضوع نفسه.. فهذا الحديث الذي يمارسه الصوفية فيما يسمى بالتزكية والتربية يختلط فيه الكثير من الغلط، ولإدراك هذا الغلط لابد من سلوك الطريق الخطأ.

فلذلك: إن أعظم ما يحقق المعارف الإيمانية والذائقة الإيمانية هو القرآن..هو إدامة الذكر.. هو هذا الذي تحسه وأنت فرح لما تعود وقد أطعمت فقيرًا أو مسكينًا.. كيف تحس بهذه المعاني وتفرح؟ الله يقذف في قلبك هذه المعاني.. عندما ينتهي صومك «**للصائم فرحتان..**» هذه الفرحة التي تحسها عند فطرك، هذه هي اللحظة الإيمانية التي تحسها وتشعر بها.. عندما تسمع قارئا للقرآن حسن الصوت، فتحس بهذه المعاني.. هذه هي الذائقة الإيمانية؛ وقد تدوم وقد تقوى، ولكنها تبقى على هذه الحالة التي ذكرناها ووصفناها.

ماذا نصنع؟؟ هذا هو قدر البشرية جمعاء في هذا الباب وهو تعدد العقول، وللأسف -كما شرحنا- ما نحبه الذي من الإنصاف أن نقول: بأن كتب الدكتور التي اطلعت عليها هي كتب نافعة تحقق المراد منها، مع ما فيها من الكثير من الحشو؛ ولكن سلوك الرجل.. هذا هو الذي قلناه ولا نزيد..

والحمد لله رب العالمين.

تفريغ العبد الفقير لرحمة ربه: أبي طالب الرسعني